مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــــرام

التاريخ : ١٩٧٥/٦/٦

البحـــران يلتقيـــان

بقلم الدكتور :

زكى نجيب محمـــود

فى الخامس من يونيو [١٩٧٥] يعيد الرئيس القائد محمد أنور السادات فتح قناة السويس ، بعد ان دك قلاع العـدو فزال عن القناة شوكة دامت فى حلقها ثمانية اعوام ، سيبحر القـــائد الظافر من شمالى القناة ، على راس موكب من السفن ، يكون هو فى طليعته .

وفى السـابع عشر من نوفمبر ١٨٦٩ ، افتتحت قناة السويس لاول مرة ، وسار فى حفل الافتتاح موكب مؤلف من سبعوستين سفينة، يتقدمه « يخت » عليه الامبراطورة يوجينى ودى لسبس .

وبين موكب الافتتـــاح الاول ، وموكب اعادة الفتح يكمن فرق ما بين العهدين : كانت القيادة فى الافتتاح الاول للاجنبى وللابـاطرة والملوك ، واصبحت القيـادة فى اعادة الفتح للمصرى الصـــميم ولجمهور الشعب ، كانت الفرحة فى الافتتاح الاول فرحة الظاهـر والظواهر،فرحة الطعام والشراب والبهرج الزائف ، واصـــبحت الفرحة فى اعادة الفتح فرحةالباطن ونبض القلوب ، فرحة العـــزة والكرامة والاصالةوعمق الوجدان، كانت الحـلاوة فى الموكب الاول للمغتصب ، والمرارة لصـــاحب الارض ، فاصبح صاحب الارضهى الموكب الثانى ممتلئابنشوة النصر، وتـرك مرارة الحنظل تسرى فى حلوق المعتدين .

انظر الى خط القناة وقد مرجت البحرين الاحمر والابيض يلتقيان، تقرا فيه سطرا مفعمة الفاظـــه بالخواطر والمشاعر ، تعيد الى ذهنك مسار التاريخ ، فمنذ القرن العشرين قبل الميلاد ، وحتى القرن العشرين بعد الميلاد . لم يغفل المصرى عن ربط هذين البحرين بتل ما فيه من خطر وخطورة ، فاذا لم يكونا موصولين وفصل بينهما البرزخ ، راودته الاحلام بان يصل ما انفصل ، واذا كانا موصولين بقناة ــ مباشرة او غير مباشرة ــ اخذته الغبرة على موضع الالتقاء بينهما من أن يغير عليه المغير .

بدات قناتنا بما كان يسمى«بقناة

الفراعنة » في عهد سيزوستريس من ملوك الاسرة الثانية عشرة ، ثم اخذت تتناوبها المقادير في عهود فراعنة آخرين ، فتحا وقفلا ، مارة بملوك الفرس ، وباباطرة الرومان الى أن جاء العرب ، فكتب عمرو ابن العاص والى مصر الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب : يستاذنه اعادة فتح القناة التى تصل البحرين عن طريق النيل،فاذن له، وسميت عندئذ «بقناة امير المؤمنين»، ولبثت قائمة حتى امر بردمها ابو جعفر المنصور ، ثانى خلفاء بنى العباس وكان ذلك لضرورة حربية، بل ان العرب فى عهد عمرو بن العاص ، قد راودتهم فكرة اخرى — بالاضافة الى القناة التى تربط البحر الاحمر بالنيل — وهى ان يشقوا قناة من بحيرة التمساح الى البحر الابيض ، لكنهم عادوا فعدلوا عن فكرتهم ، خوفا من أن يستغلها اعداء .

فاذا شئت فصور لنفسك امر القناة على غرار ما يفعله الفنان عند الابداع اذ يظل يخط التجربة بعد التجربة ، حتى يستقر لـه الشكل النهائى الذى يرتضيه ، فكذلك كانت تجارب التاريخ على مدى القرون فى محاولته وصل البحرين ، حتى كان لنا منها هذه اللحظة الاخيرة التى نحتفل بها فى عهد الرئيس السادات ، ولقد اختلفت مشاعرنا — نحن ابناء مصر — على طول التاريخ ، ازاء القناة التى تصل البحرين ، من حيال شعورى ابان المراحل الاولى، الى مرارة الغيظ حيال قناة دى لسبس ، الى شعور الفخار والزهو فى مرحلة السادات .

ولم يكن ذلك التقلب الشعورى نحو القناة ، الا انعكاسا — فى كل مرحلة — لما اصاب المصرى منها : فنتجت اللامبالاة فى المراحل التى لم يكن للشعب راى فى وصل البحرين او فصلهما ، فما شاء الحاكم فيلفعل ، وكانت مرارة الغيظ حين جاء فتح القناة غبنا كل الغبن على المصرى ، فسواعد المصريين هى التى شقت اليابس ووصلت الماء : ومال المصريين هو الذى تدفق فى الجيوب ، فما عادت عليه السواعد وانفاق المال الا بذل الخضوع لاجنبى يحكمه .

ان كاتب هذه السطور لا ينسى من لحظات حياته الماضية لحظتين: كانت اولاهما عندما طلب اليه فى امتحان التاريخ — وكان عندئذ طالبا فى مدرسة انجليزية ثانوية — ان يكتب عن قناة السويس ، فلم يستطع وهو فى تلك السن الصغيرة الا ان يتجاهل المادة التى تعلمها من المدرس [الانجليزى] ليكتب شيئا اقرب الى المقالة المنتهية بنار الكمد ، تعبيرا عما كان يحسه نحو قناة هى التى جاءت آخر الامر بالاحتلال البريطانى لمصر .

واما اللحظة الثانية التى لا ينساها كاتب هذه السطور ، من

بين لحظات ماضيه ، فهى اقرب من ذلك عهدا ، كانت هذه اللحظة الثانية فى اكتوبر من عام ١٩٥٣ ، حين كان الكاتب استاذا زائرا فى احدى الجامعات بالولايات المتحدة الامريكية ، اذ اختلى صديق فى عطلة الاسبوع الى ضيعة بعيدة يملكها ويسكنها قريب له جاوز الثمانين من عمره ، وكان فى ايامه العاملة قاضيا ، ولذلك لم يكونوا يوجهون اليه الحديث الا يقولهم : القاضى هاموند ،وفيما يلى فقرة من المذكرات التى كتبها الكاتب يومئذ ، ونشرها بعدئذ فى كتاب :

« ... وقد كان يستحيل الا يجيء ذكر مصر فى الحديث ، فسالنى القاضى هاموند السؤال الذى يستحيل الا يساله كل انسان هنا ، كما يستحيل الا ياخذنى الغضب والانفعال كلما اجبته ، فما استطعت مرة واحدة ان اجيب عنه وانا هادىء الاعصاب ، وهو:

انكم تطلبون من الانجليز ان يتركوا قناة السويس ، فهل اذا تركوها تستطيعون الدفاع عن انفسكم ؟ فاجبت دائما بقولى : لان نستطيع أو لا نستطيع الدفاع عن انفسنا ، فانما ذلك من شاننا وحدنا ،وليس من حق مخلوق على ظهر الارض أن يسالنا سؤالا كهذا،فضلا عن اننا اذا دافعنا عن انفسنا ضد الانجليز، واذا خفنا على ارضنا فمن الانجليز ولا يعقل ان نستريح لدفاع الانجليز وهم عدونا الاول ، الانجليز عدو قائم فعلا ، والروس عدو محتمل الوقوع ، ومن البلاهة ان نستبقى عدوا حقيقيا اتقاء لعدو محتمل .

فقال القاضى هاموند انه يصارحنى بشعوره ، وهو انه كلما قرا عن رغبة المصريين فى استرداد قناة السويس ، كاد الدمع يطفر من عينيه ، لان الانجليز قد بنوها بمالهم ، فكيف يجيء المصريون الان فيقولون : نريد القناة !! فلما افهمته ان المال مالنا حتى وان بقى بعضه دينا علينا، وان الارض ارضنا، وان السواعد المصرية هى التى حفرت القناة فى ارض مصرية، قال القاضى — اما جاد واما متهكما — هذا كشف جديد لى فى السياسة ، أن اعلم من هذا السيد ان القناة لم ينفق عليها الانجليز » .

اننى حين كنت اتحدث مع القاضى بانفعال الغاضب ، كانت ترتسم فى دخيلة نفسى صور العمال المصريين المسخرين لحفر القناة افواجا بعد افواج ، كان كل فوج منها ستين الفا : عشرين الفا منهم قائم بسخرته ، وعشرين الفا ثانية قد فرغت لنوبها وهى فى طريق عودتها ، وعشرين الفا ثالثة تعد للذهاب الى موضع السخرة ، وهكذا دواليك تدور الدورة بالالوف عشرينات عشرينات،كانها السواقى تدور بقدورها ، هذه تفرغ ماءها وتعود لتمتلىء بالماء كى تهوى

لتفرغه من جديد ، وكان اجر العامل كل يوم ما يعادل قرشا واحدا ، لتضاف الى السخرة سخرية .

كان سخطى ـ بالطبع ـ امتدادا لسخط امة بأسرها ، وهو نفسه السخط الذى انفجر فى ثـــورة عرابى ، حتى وان تنوعت الاسماء واختلف العنوان ، لانه ســخط المصرى يجد نفسه غريبا فى ارضه مفلسا فى تراثه ، ذليلا وسط دواعى عزته .

كانت ثورة عرابى نتيجة للمرارة التى احسسناها، وجاءت ثـــورة ١٩٥٢ لتكون ماحية لتلك المرارة من صدورنا ، فمنذ اللحظة التى نطق فيها جمال عبد الناصر بتأميم القناة، انقلبت كراهيتنا للقناة حبا، لقد تحول مصدر الذل ليصـــبح مصدر عزة وكرامة ، تحـــولت مشاعرنا القومية نحو القناة منذ تلك اللحظة الحاسمة ، وعلى قدر زهونا كانت نقمة الاعداء ، ولا غرابة ، فاما نحن واما هم ، اذا انتصرت ارادتنا على ارضنا وقناتنا انكسرت ارادتهم ثم ازداد هذا التحول الشعورى الضخم نحـــو قناتنا، على يدى الرئيس السادات، ان القناة لم تعد فى اعيننا هى تلك المجرى المائى الذى يربط البحرين فيسيطر عليه غاصب ويطمع غيـــره غاصب آخر ، ونضيع نحن بين الغاصبين ، بل اضحت لنا القناة كأنها نيل ثان: فالنيل العذب يخضر الارض بزرعة والنيل المالح يعيد مصر الى موقعها المركزى من تجارة العـــالم ، انشـــا لنا نهر النيـــل مـــدائن العمران من اســـوان فى الجنوب الى الاسكندريـــة فى الشمال، وانشأت لنا القناة مدائن العمران من بورسعيد الى السويس

والنيلان معا ـ النهر والقناة ـ هما من حق المصريين ومن اجلهم، وفى سبيل هذا المعنى يحتفـــل الرئيس القـــائد باعادة الفتح ، ويحتفل الشعب معه . □